درب العدالة

العدالة شمسٌ لا تُغيبُ، ونورٌ لا ينطفئُ

لا شيء يشبه بلدي. أكبر خسارة لنا كسوريين في الحرب هي أننا خسرنا بلداً لا يمكن تعويضه. بلدنا يستحق كل الدم الذي سفكناه من أجله، ويستحق أكثر من أجل استعادته.

أنا من سكان حلب الأصليين، ولدتُ في عائلة محافظة، وأشعر أحياناً أن المجتمع الحلبي متعصب، وأنا لا أحب ذلك. ولدتُ كطفلة مثل جميع الأطفال، كانت حياتي سلسة نوعاً ما إلى أن بلغت فترة المراهقة.

عندي 6 أخوة في العائلة، إضافة إلى الأب والأم. ثم بدأ الأخوة والأخوات يتزوجون فتقلص هذا العدد. أنا الوسطى بينهم، ثلاثة أكبر مني وثلاثة أصغر. حين بلغت الرابعة عشرة من عمري تزوج أخويّ الأكبر وابتعدا عن حياة الأسرة، فبقيت مع الأخوة والأخوات الأصغر سناً، وعلاقتي بهم أقوى من علاقتي ممن يكبرونني في العمر، كذلك بقيت معنا أختي الأكبر مني.

كان المرحوم أبي يدللني كثيراً، فتعوّدتُ على حياة الرفاه، ثم بدأت الصعوبات حين بدأ وضع أبي الصحي بالتراجع. وأنا طالبة في الجامعة وأعمل في الوقت نفسه، فبدأت أعاني من ضغوط الحياة. فرحة بابا بتفوقي في المدرسة لا أنساها أبداً، في المرحلة الابتدائية بشكل خاص، واستمر ذلك في المراحل اللاحقة أيضاً. كانت إدارة المدرسة تعلق على صدر الطالب المتفوق وساماً ونجمة لمدة أسبوع، ثم نعيدها إليهم. فكان المرحوم أبي يبتهج بهذا الوسام. أذكر أنني كنت في الصف السادس حين حصلت على الوسام، فأجلسني أبي في حضنه وابتهج كثيراً. أما أمي فأشعر أنها كانت تدلل أختي أكثر مني.

كانوا يقولون عني إن شخصيتي أقوى من شخصية أختي الأكبر مني، فربما كانت أمي مدفوعة بالرغبة في تعويضها عن ذلك. كانت تقول لي: "أنت قادرة على تحصيل حقوقك، أما أختك فهي تلزم الصمت" فكنت أشعر أنها منحازة لها أكثر. لكن وجود بابا كان يعوّضني، فقد كان سندي الدائم في كل خطوة أخطوها وفي كل قرار أتخذه، منذ طفولتي إلى آخر لحظة في حياته.

كان بيتنا في منطقة الزبدية في حلب، أمام جامع البتول. وهي منطقة قريبة من سيف الدولة، آخر خط سيف الدولة. حين بدأت الحرب أصبحت من المناطق المحررة. كنا تقريباً على خط التماس بين مناطق النظام والمناطق المحررة. هي منطقة تقطنها الطبقة الوسطى.

لم نكن نختلط كثيراً بأطفال الحي، واقتصرت علاقاتنا على زميلات المدرسة. أما الصداقات الحقيقية فقد بدأت في المرحلة الجامعية. أما في فترة المراهقة فقد كانت لدي صديقتان مقربتان فقط، ثم تباعدت بيننا سبل الحياة، لكننا بقينا نتواصل من حين إلى آخر.

في المرحلة الجامعية درست في المعهد الزراعي، لأن معدل نجاحي في البكالوريا حدد لي هذا الفرع. ولم يكن هذا هو طموحي، بل بسبب تراجع وضعي الدراسي في البكالوريا. وبعد تخرجي في العام 2002 عملت لفترة في تدريس اللغة الإنكليزية. وبموازاة ذلك سجلتُ في كلية الحقوق، نظام التعليم المفتوح، في العام 2005، وتخرجت منها قبل الأحداث، في العام 2009، وانتسبت لنقابة المحامين وبدأت أزاول مهنة المحاماة. كانت زميلاتي يستغربن قدرتي على التوفيق بين العمل والدراسة، لكنني كنت أستغل أي فترة متاحة للانكباب على مقررات الحقوق. بل إنني تقدمت إلى مسابقة لانتقاء قضاة، لكنه لم يتم اختياري بسبب المحسوبيات المتحكمة في الاختيار. عملتُ أيضاً في جمعية خيرية إسلامية هي دار الأيتام بحلب. وكان عملي فيها أجمل خطوة في حياتي بعد الانتساب إلى النقابة، فقد شعرتُ أنني يمكن أن أحقق ذاتي في هذا العمل، فأنا من النوع الذي يحب تقديم خدمات للناس، ربما لأن الله قد منحني قوة ويمكنني أن أكون سنداً لغيري. كانت بداية عملي في دار الأيتام في العام 2010، وفي العام التالي بدأت الأحداث، وكان مقر جمعيتنا بقرب مبنى المخابرات الجوية، ملاصقاً له. ومنذ بداية الأحداث انتقلنا من المبنى إلى مكان آخر، فتعرض اليتامى للنزوح مثل غيرهم. وجرت أحداث ومعارك كثيرة في تلك الفترة. عملت في المحاماة، إضافة إلى وظيفة الإشراف على الغرفة العقارية لدار الأيتام. ومع بداية الأحداث تغيرت ظروف العمل تماماً.

كان منعطفاً حاداً قلب نهر الحياة في الاتجاه المعاكس لما رسمته لنفسي. عدنا إلى الصفر. طالبنا بالحرية، قلنا لعل وعسى... مهنة المحاماة هي من أكثر المهن التي تكشف مواطن الفساد، فكان المحامون من أكثر الفئات التي اتخذت مواقف واضحة، كنا نعتبر أنفسنا ممثلين عن الشعب الضعيف الذي يلجمه الخوف. وكان المرحوم أبي يستاء حين يسمعني أعبر عن مشاعري وأدعو للانحياز إلى الطرف الآخر، ويطلب مني ألا أتدخل: "نحنا ما دخلنا، خلينا بحالنا".

مع بداية الأحداث تم إغلاق دار الأيتام، وأصبح بيتنا في منطقة سيطرة الجيش الحر فانقطعنا عن العمل. كذلك تم إغلاق القصر العدلي بعد حوالي السنة من بداية الأحداث. وتوقفت المحاكم عن العمل. وانتقل دار الأيتام إلى منطقة قريبة من حي الأشرفية، ثم انتقل إلى مقر جديد قريب من شارع النيل، فكان صعباً عليّ الوصول إلى هناك. فانتقلت مع أهلي إلى شارع النيل حيث أقمنا في مبنى روضة أطفال. كان ذلك في شهر رمضان العام 2011 حين بدأ القصف على حي صلاح الدين، وكان الفصل صيفاً، في شهر تموز أو آب. لم يرغب أبي في مغادرة البيت، مع أننا كنا نرى طائرة الهليكوبتر في الجو قبل أن تقصف، فحي صلاح الدين قريب من حينا. بعدها صدّق أبي حين رأى خطورة الوضع. وقبل ذلك كان مقتنعاً أن النظام مستحيل أن يقصف الأحياء السكنية.

بقينا نحو شهرين في شارع النيل. وفي هذه الفترة كان دار الأيتام ما يزال قرب فرع المخابرات الجوية، فكنت أذهب إلى عملي هناك، وكان عناصر الفرع يقومون بتفتيش باص موظفي الجمعية كل يوم عند الدخول وعند الخروج. ولم يمض شهر أو شهران حتى تم إخلاء مبنى الجمعية وقاموا بنهب محتوياته. كان في مستودعات الجمعية من المؤن ما يكفي لإطعام عائلات حلب لسنة كاملة. أخرجنا الأولاد، وكنت مسؤولة عن الشؤون القانونية، فلا أعرف بالأمور الأخرى، لكنني كنت على علم بمحتويات المستودع التي تم نهبها. فقد كانت الجمعية غنية بمواردها.

بعد شهرين عاد أهلي إلى البيت في حي الزبدية، في حين أقمت لمدة شهر في بيت خالي. كانت هذه التنقلات متعبة كثيراً، فأخبرتهم أنني أريد العودة إلى البيت، فاشترطوا علي أن أترك عملي، بسبب صعوبة الوصول من البيت إلى العمل في تلك الظروف. لكني كنت مصممة على عدم ترك عملي الذي أحبه، إضافة إلى أن ظروف الحرب جعلت أخوتي بلا عمل، وأبي مريض، فكنت الوحيدة التي لديها دخل مادي. فكنت أستقل الباص من كراج الحجز الذي يسمى بمعبر الموت.

وكان عليّ أن أمشي من البيت إلى المعبر الذي يؤدي إلى منطقة بستان القصر، فلم تكن هناك وسائل مواصلات في تلك المنطقة. في فترة من الفترات كانت شاحنات السوزوكي الصغيرة تستخدم لنقل الركاب الذين يريدون الوصول إلى مناطق سيطرة النظام. اختفت سيارات "السرفيس" المعتادة وحلت محلها الشاحنات الصغيرة، هناك من استغل حاجة الناس لتحقيق مكاسب شخصية. فقد ظهر الفساد منذ بداية الثورة. فتلك الشاحنات يملكها مقاتلون على حواجز الجيش الحر، لا أعرف التفاصيل، ولكن هذا ما لاحظته. وكنت أجادلهم كل يوم قائلة إنني أرفض ركوب صندوق شاحنة سوزوكي، فيقولون لي: "هذا هو الموجود، إذا شئتم اركبوا". وأقول لهم إننا أطلقنا ثورة اسمها ثورة الكرامة، وأنتم تقومون بإذلالنا أكثر مما كانت الحال قبل الثورة.

كنت إذن أمشي من البيت في الزبدية إلى كراج الحجز. وكانت عند المعبر نقاط تفتيش، وعلينا أن نعبر راكضين تجنباً لرصاص القناص. كثيراً ما رأيتُ أناساً أغمي عليهم بسبب الرعب في ذلك المعبر حتى حين لا يظهر القناص. امرأة برفقتها طفل يصاب بالدوار، أخرى واقفة مع زوجها تبكي وترجوه ألا يعبر.

الذل الذي كنت أشعر به أثناء اجتياز معبر كراج الحجز لا يمكن وصفه. حين نصل إلى الجهة الأخرى، يواجهنا حاجز للنظام على وجوه عناصره هيئة المجرمين، يذلوننا ويسألوننا من أين نحن قادمون، وما الذي تفعلونه هناك؟ ونتعرض لإهانات لفظية كثيرة، الحمد لله أنني نجوت منها، ولكن كنت أشعر بالقهر الشديد من هذا الوضع بعد المكانة التي كنت أتمتع بها في مجتمع المحامين حيث لا نتبادل إلا كلاماً محترماً، نخاطب بعضنا بعضاً بعبارات "أستاذ" أو "أستاذة" و"تفضلوا" وما إلى ذلك. حين كنت أدخل مكتب أحد القضاة، أراه يقف ويرحب بي. أما في الوضع الجديد فبات عليّ أن أسلم هويتي عند الحاجز وأنتظر دوري في الطابور، وأسمع كلمات التجريح من عناصر الحاجز.

قد تبدو هذه أموراً تافهة بالمقارنة مع فظاعة ما تعرض له سوريون آخرون، لكن هذه الأشياء التافهة كانت تجرحني بعمق. إلى أن جاء آخر عبور لي، وتصادف مع يوم ضرب غوطة دمشق بالسلاح الكيماوي. كان القناص يطلق النار على السيارة التي أركبها، ورأسي يمور بأفكار سوداء، فقد أصبحنا بلا قيمة، ويمكن للنظام أن يبيدنا بالسلاح الكيماوي كما حدث لأهالي الغوطة، وقد أتحول في لحظة واحدة إلى جثة هامدة تنتفخ وتبقى حيث هي أسبوعاً أو أسبوعين ولا أحد يستطيع انتشالها. فنحن في نظر هذا المجرم حشرات. لقد تعبنا ودرسنا وحاولنا أن نصلح البلد، لكنهم وقفوا في وجهنا. كانت غايتنا سامية، ولم نكن نريد تدمير البلد.

كان يقف على حاجز النظام شبيحة بينهم نساء أيضاً، الله أعلم ربما يسهرن في الملاهي الليلية ويأتين في الصباح للوقوف على الحواجز. هذا ما كانت هيئاتهن تشي به. حين أراهن كنت أقرأ آية الكرسي قبل أن أصل إليهن وأستعيذ بالله، حتى لا أدخل في نقاش معهن. فأنا من النوع الذي لا يتحكم بغضبه، كنت كقنبلة موقوتة، أخشى أن أتفوه بكلام قد يكلفني غالياً. كان من حولي ينبهونني من مصير الاختفاء القسري الذي كان شائعاً.

واظبت على العبور من ذلك المعبر إلى صيف 2013. وكنت أمر بنقاط تمركز لفصائل مسلحة مختلفة، ولكل شخص منهم أسلوبه المختلف في التعامل مع المدنيين. وفي إحدى المرات قالوا إن الواقف عند نفطة المعبر يتبع لجبهة النصرة. لم أكن أميّز في تلك الفترة ولا أهتم بهذه الأمور. وقالوا إن على النساء أن يبتعدن عن الرجال ويرتدين ملابس من نوع آخر. وفي تلك الفترة كان أهلي يلحون عليّ لأغيّر طريقة حجابي بما يتفق مع معايير الإسلاميين ولأمتنع عن استخدام المكياج، خوفاً عليّ.

كان يقع قتلى كل يوم على المعبر، بمعدل قتيل أو قتيلين تقريباً. كنا نعتبر أنفسنا حين نعبر سالمين وكأننا ولدنا من جديد.

بعد المعبر كنا نكمل طريقنا إلى بستان القصر سيراً على الأقدام، ومن هناك إلى الزبدية. وفي بعض المرات كنت أمر فوق النهر الذي حصلت فيه المجزرة المعروفة باسم مجزرة النهر. ولحسن حظي لم أعبر الطريق في يوم المجزرة، لكن أخي عبره في ذلك اليوم، وأخبرني حين عاد إلى البيت في المساء بما رأى، فقال إن المشاهد كانت فظيعة، لقد رأيت تلك المشاهد لاحقاً على وسائل التواصل الاجتماعي. وكان الاعتقاد الشائع أنها تعود لمعتقلين في فرع المخابرات الجوية قتلوا تحت التعذيب وألقي بجثثهم في النهر. فقد كان معروفاً عن المخابرات الجوية أن عناصرها يصفون الناس بهذه الطريقة. وفي إحدى المرات كنا على الطريق من شارع النيل باتجاه أوتوستراد المحلّق، رأينا جثة منفوخة مرمية في وسط الطريق في مكان قريب من فرع الجوية، من الواضح أن فترة مرت عليها بعد وفاة صاحبها. مددت رأسي من نافذة الباص واستغربت أن أحداً من الركاب لم يجرؤ على التساؤل عمن يكون صاحب الجثة، أو عما إذا كانت سيارة اصطدمت به مثلاً. التزم جميع الركاب الصمت. نحن شعب يعيش على الصامت. لكن الجميع كانوا في قرارة أنفسهم يدركون مصدر الجثة والجهة التي قامت بقتل صاحبها وإلقائها على الطريق. في تلك المرة الأخيرة ركبنا السيارة وجلسنا على أرضها، فقد كانوا قد استبدلوا في تلك الفترة شاحنات السوزوكي بالسرافيس القديمة الفولكس فاكن، لكنها عتيقة وبلا مقاعد، ميزتها الوحيدة أنها مغلقة والركاب في داخلها وليسوا مكشوفين على القناصة. ولكن بمجرد أن شغّل السائق محرك السيارة حتى بدأ القناص باستهداف السيارة. كان أكثر الركاب من الرجال، مقابل امرأة واحدة أو اثنتين. شعرت في تلك اللحظة أنها النهاية، وأننا لن نخرج أحياء من السيارة. سبق ورأيت في مرات سابقة عبرت فيها المعبر سائقاً قتل برصاص القناص ورأسه المضرج بالدم فوق المقود، ولا أحد يجرؤ على الاقتراب منه، على رغم مرور ربما أسبوع على مقتله هناك. وفي تلك اللحظات المهولة تذكرت مشهد هذا السائق القتيل، وأننا سنقتل وتبقى جثثنا في السيارة لزمن غير معلوم لا يجرؤ أحد على سحبها من هناك. وعاهدتُ نفسي أنني إذا خرجت سالمة ووصلت إلى بيتي بأمان، لن أكرر عبور معبر الموت هذا مرة أخرى.

وبعد نحو أسبوع من آخر عبور من كراج الحجز، وكانت فترة أعياد، جاء أخي الذي كان مقيماً في تركيا في إجازة، وعند عودته إلى تركيا جئت معه ولم أرجع إلى سوريا بعد ذلك. كانت الحدود التركية مفتوحة ما تزال والعبور سهلاً على من يشاء. أخذت إجازة من العمل وسافرت مع أخي. حين قررت السفر إلى تركيا لم أعرف أنه خروج بلا رجعة. اتصلت بزميلة مقربة وحكيت لها عما حدث معي على المعبر، طالبةً منها تقديم إجازة مؤقتة لي، فعرضت عليّ الإقامة في بيتها ومتابعة الدوام معها. فبيتها في حلب الجديدة، ضمن مناطق النظام، والذهاب إلى مكان العمل من هناك لا يتطلب المرور بمعبر الموت. لكنني قلت لها إنني مرهقة ولا أستطيع مواصلة العمل حالياً على كل حال. فقالت لي سأحصل لك على إجازة لعشرة أيام، سافري إلى تركيا وعودي بعدها إلى العمل حين تكونين في وضع أحسن. وهذه كانت نيتي حين خرجت إلى تركيا. ففي تلك الفترة لم يكن يخطر في بالي أبداً أن أغادر بلدي بصورة نهائية. كنت أقول إذا غادرنا سوريا فلمن سنتركها؟ خرج معي أخي الأصغر أيضاً، لأنه لم يعد يجد عملاً في حلب. كانت فكرتي أن يخرج هو ويبقى في تركيا ليعمل، وأعود أنا بعد فترة قصيرة. كنت أعتقد أنني سأعود بعد أسبوعين أو شهرين مثلاً، ولكن ها قد مرت عشر سنوات وأكثر وأنا خارج سوريا.

أما أهلي فلم يكونوا يفكرون بالسفر إلى تركيا، لأن أحداً لم يتوقع أن تتطور الأحداث بهذه الطريقة. لكنهم خرجوا أيضاً بعد فترة.

الشعب السوري يستحق الحياة، فهو طموح وذو إرادة قوية، قادر على الحفر في الصخر، أثبت وجوده أمام العالم كله. ولكن هناك خطأ ما جعل هذا الشعب لا يحصل على حقه على رغم مرور عشر سنوات قاسية جداً. يبدو أن هناك شيء ناقص أو حلقة مفقودة، أتمنى أن نكتشفها لنستطيع أن نكمل ما بدأناه. يمكن السبب أو الحلقة المفقودة هي أننا للأسف شعب منقسم على نفسه، حين كنا ننزل من مناطق الجيش الحر إلى مناطق النظام، لنمشي أو نشتري شيئاً مثلاً.

كنا نرى المقاهي مزدحمة بالناس يدخنون الأراجيل أو يأكلون البوظة، وكأن شيئاً لا يحدث في الجهة الأخرى من المدينة، مع أن المدفعية تطلق قذائفها من حي الزهراء قريباً منهم، وتنزل هذه القذائف في الجهة الأخرى. ربما لهم عمات أو أقارب يتعرضون للقصف، وهم يتصرفون وكأن الحرب تدور في بلد آخر. هذه هي حال شعبنا، كل فرد لا يفكر إلا بنفسه. لو كنا يداً واحدة، كنا تحررنا منذ وقت طويل. كان هذا يحرق قلبي. أنت الجالس هنا تدخن الأرجيلة باستمتاع، ألا تسأل نفسك يا ترى على رأس من وقعت القذيفة التي تسمع صوت إطلاقها؟ أو على رأس من تقوّض أحد البيوت؟ فالناس في تلك الجهة هم من أهالي حلب، وليسوا أغراباً، ليسوا أعداءً نحاربهم، هؤلاء أهلنا ودمهم دمنا. ليس هناك من أحد في المناطق الغربية إلا وله أقارب في المناطق الشرقية التي تتعرض للقصف. لماذا قسمتم المدينة، حتى داخل العائلة الواحدة كان الأخوة يختلفون فيما بينهم حول ما يجري.

كان قرار خروجي إلى تركيا أصعب قرار أتخذه في حياتي وهو الوحيد الذي أندم عليه. أندم على خروجي من سوريا وبدء حياة جديدة في تركيا.

كان عبورنا إلى تركيا ميسوراً جداً وكأننا ننتقل في حلب من حارة إلى حارة أخرى. مع أن إحدى صديقاتي سافرت إلى تركيا قبلي بأقل من شهر، وقالت لي أنها تعذبت كثيراً أثناء العبور، وأنها أمضت يومين وهي تنزل في نفق وتخرج منه لتنزل في آخر. وقد قررت أن أرجع فوراً إذا وجدت العبور بالصعوبة التي حكتها تلك الصديقة، فأنا على أي حال لم تكن لدي نوايا بالبقاء في تركيا. ولكن سبحان الله تيسر عبورنا ولم يستغرق أكثر من خمس دقائق.

ثم وصلنا إلى عينتاب، ونزلنا عند بيت أخي في المنطقة القريبة من جامعة عينتاب. فوجئت بنمط الشقق، فلم أكن أعرف إلى ذلك الوقت المطبخ الأميركي، أي المطبخ الموجود داخل الصالون.

ففي سوريا كانت البيوت كبيرة كلها شرفات، ورأيت هنا بيوت صغيرة جداً، صالون وغرفة نوم فيها خزانة وسرير. والثلاجة صغيرة جداً، إذا وضعنا فيها بطيخة وبعض الماء امتلأت. استغربت وسألتهم كيف يستطيعون العيش في هذه الشروط، فقالوا "أحسن من ظروف الحرب". وافقت أخي على كلامه، لأن قطع الكهرباء والماء وفقدان الخبز، هذا عدا عن الحرب والقصف، هذه الأمور وحدها تجعل الحياة هنا في أسوأ الشروط أفضل من شروط الحرب القاسية في سوريا. أول يومين كنت مرتاحة، فلدينا هنا كهرباء وأنوار تضيء البيت ليلاً، وننام بهدوء بدون أصوات قنابل. قلت لأخي: "بالفعل هنا عالم آخر" فقال: "وماذا ستقولين إذا خرجت وشاهدت المدينة؟".

نمنا في بيت أخي الكبير. كان وضعه يرثى له، فراتبه منخفض ولا يتحمل أن يعيل شخصين إضافيين. كانت لديهم جارة تركية، المفروض أنها تحبهم كثيراً، وقد أبدت تعاطفاً كبيراً مع ابني أخي المعاقين، وحاولت أن تحصل على مساعدات من أجلهما. عرّفتني عليها زوجة أخي حين جاءت لتشرب القهوة معنا في اليوم الثاني لوصولنا. انبهرت بي وقالت: "كم أن الفتيات السوريات جميلات". الحقيقة أنني أرى نفسي عادية ولست جميلة جداً بمقاييس الجمال. ظلت تمتدح جمالنا كسوريات ونحن نضحك. وكنت أشارك في الحديث بالإشارات، لأنني لا أعرف شيئاً من اللغة التركية. في مساء اليوم الثالث خرجنا معاً. اقترحت على أخي الصغير أن يخرج معنا، لكنه تذرع بالإرهاق بعد يوم عمل، فقد بدأ العمل منذ اليوم الثاني لوصولنا. لقد عمل في المعمل نفسه الذي يعمل فيه أخوه الأكبر. نزلنا من البيت، وإذ بتلك الجارة تتحدث مع مجموعة شبان جالسين في مطعم شواء في الطابق الأرضي من البناء. بادرها أخي وزوجته بالتحية ومضينا في طريقنا. وإذ بها تصيح من ورائنا بصوت مرتفع قائلة: "انتظروا، ثمة شاب هنا حدّثته عن وضع أولادكم فتأثر كثيراً وتألم كثيراً من أجلهم ويرغب أن يساعدكم". كان الشاب المقصود راكباً في سيارة، ركبنا معه، لاحظت أنه طوال الطريق ينظر إليّ من خلال المرآة الداخلية، وتجاهلت الأمر. قصدنا مركز تسوق، فقال الشاب لزوجة أخي خذوا ما تشاؤون، والجارة تملأ سلتها.

كان هذا الوضع غير مألوف بالنسبة لنا. والشاب كيفما تلفتُّ رأيته ينظر إليّ، وأنا أغض النظر. رجعنا إلى البيت، وقالت الجارة أنه يجب أن نستضيف الشاب على فنجان قهوة في البيت. فهو يريد أن يتعرف إليكم ويرى الولدين المعاقين. فوافق أخي ببساطة. كان أخي الأصغر نائماً، وبمجرد دخولي لغرفة النوم حتى لحقت بي زوجة أخي وقالت لي وهي تضحك إن الشاب تقدم لخطبتي. فقلت لها إنني مستحيل أن أتزوج رجلاً تركياً. فحاولت إقناعي وطلبت مني أن أمنح نفسي فرصة فربما كان فيها خيراً. وطلبت مني أن أجلس في الصالون في حضوره، فرفضت. المهم، شربوا القهوة وانصرف الشاب. وحاول أخي الكبير أن يقنعني أيضاً، قائلاً إن سوريا انتهت. قلت له كيف أتزوج رجلاً لا أعرف لغته ولا يعرف لغتي. فقالوا لي: "فكري في الموضوع بضعة أيام".

أصبح الشاب يأتي كل يوم وفي يده شيء ما، طعاماً أو ما إلى ذلك، في محاولة منه لإغرائنا بأنه مرتاح مادياً وغني وما إلى ذلك. ثم استشرت أخي الصغير، فعبر عن عدم ارتياحه ونصحني بالرفض، مختلفاً في موقفه مع أخي الأكبر الذي طمّعه الشاب بفتح ورشة له بدلاً من العمل في معمل. وكل ذلك بالإشارات، فأخي أيضاً لا يعرف اللغة التركية. اتصلنا بأهلي وطرحت الموضوع على أبي وأمي. فوجئوا كثيراً، وسألتهم عما إذا كانوا يرغبون بالمجيء للتعرف إليه. وكنا قد قلنا للشاب إنه مستحيل أن يتم الأمر بدون حضور أهلي وموافقتهم. فقال إنه يستطيع إحضارهم غداً مهما كلفه الأمر. الحقيقة أنني دخلت في حالة من التردد. وأردت أن أحضر أهلي لأنقذهم من الحرب، ثم لكل حادث حديث. كل هذا جرى في فترة قصيرة جداً، 23 يوماً منذ وصولي إلى تركيا، والشاب يحاصرني كل يوم. حتى أنه منعني من دخول سوريا لأعود مع أهلي، وقال: "وماذا إذا لم تعودي؟".

كنت خارجة من دوامة فظيعة وأبحث عن مخرج، فتراءى لي هذا الزواج مخرجاً معقولاً. وهكذا جاء أهلي بعد وصولي بثلاثة وعشرين يوماً. وقالت أمي إنها غير مرتاحة لموضوع زواجي بالرجل التركي، وكان قد استأجر بيتاً ومستلزمات للبيت كلها على حسابه، فبتنا في موقف حرج. ثم حين رآه أبي وأمي لم يقولوا شيئاً.

أما أخي الأصغر فبقي على موقفه الرافض. وقال أبي وأمي إنني أنا صاحبة القرار، ونحن نثق بك. فأنت لست بصغيرة. المهم اتخذت قراري وتزوجنا، ليتضح لي لاحقاً أنه كان كاذباً في كل ما قاله عن نفسه. فحين سألته عن عمله قال إنه مهندس معماري ويملك شركة بناء. وكان يكبرني بثلاث سنوات. مع الأسف أغراني بشبابه وثرائه المزعوم. كذلك وعدني بفتح مكتب محاماة من أجلي. وكان في كل زيارة يأتي راكباً سيارة مختلفة.

كل شيء تم بسرعة البرق، جاء ليلبسني محبس الخطوبة، وإذ به يحوّل الأمر إلى عقد القران وأحضر معه مجموعة مصوغات ذهبية، كل ذلك في خمسة وعشرين يوماً، كأنني في مسلسل هندي. ربما كان ذلك نوعاً من ردة الفعل على الظروف الصعبة التي عشتها في حلب، فضحيت بنفسي. أعزي نفسي قائلة: المهم أنني أنقذت أهلي من الحرب، وأنا إنسانة قوية أستطيع النجاة بنفسي إذا فشل الزواج. الواقع أنني لم أر منه شيئاً من الرجولة والإنسانية. شخص أناني جداً، لكنه أحبني بجنون. كان يقول لي: "أنت الهواء الذي أتنفسه. لا أستطيع العيش بعيداً عنك". في البداية استأجر لي بيتاً في عينتاب، ثم قال إنه لا يستطيع أن يعيش بدوني، ويريد أن يأخذني إلى ديار بكر، مدينته، فهو كردي من هناك. ولم يكن قد مضى على زواجنا أكثر من أربعة أيام أو خمسة، ولم يمض على وصول أهلي من سوريا إلا فترة قصيرة. حين قال لي إنه سيأخذ بيتاً لي في ديار بكر، خفتُ كثيراً، فقد سمعت قصصاً عن أتراك يأخذون بنات سوريات يتاجرون بهن ويتعرضن لانتهاكات كثيرة. كان في رأسي شيء من العقل، فقلت له لن أذهب معك إلى ديار بكر وحدي. حتى لو كان زوجي، فأنا بالكاد أعرفه. قال لي أهلي ليذهب معك أخوك، والمقصود أخي الأوسط الذي جاء مع العائلة من سوريا. فوافقت على اصطحابه، صحيح أنه لا يعرف التركية لكنه رجل وسيشعرني وجوده معي بالأمان. سافرنا إلى ديار بكر في اليوم الخامس على زواجي، وفعلاً كان قد استأجر لي بيتاً جميلاً جداً في منطقة فخمة، لكني فوجئت أن المنزل خال من أي أثاث. ثم اصطحبنا، أنا وأخي، إلى متجر مفروشات فخم، وأثثنا البيت خلال ساعتين، ولم يبق إلا غرفة النوم.

قالوا إن الوقت تأخر، ولن يتمكنوا من إحضار غرفة النوم في المساء، ووعدوا بإحضارها، وكذا الأدوات الكهربائية، في اليوم التالي. كانت البداية مبشرة، فتوسمت فيه خيراً، وقلت لنفسي إنه إنسان صادق ولن يغدر بي. واطمأن أهلي بعدما رأوا منه ذلك. بقينا نحو أسبوع في ديار بكر، ومعي أخي، ولم يكن زوجي ينام معنا في البيت ولم أعرف سبب ذلك. كنت أعرف أن لديه زوجة، فقد صارحني بذلك منذ تقدم لخطبتي، وقال إنه منفصل عنها وهما كأخ وأخته، وهي تربي أولاده. حتى أنه اتصل بها اتصال صوت وصورة في حضوري، وكانت تضحك، فظننت أنه أخبرها بزواجه مني. وكنت أعتقد أن تعدد الزوجات طبيعي عندهم، فهم أكراد. ولم أكن على علم بقانون منع تعدد الزوجات في تركيا.

بعد انتهاء الأسبوع، قال إن لديه عملاً يقوم به، وهو يخاف أن يتركني وحدي ويذهب، فاصطحبني، وأخي، إلى عينتاب عند أهلي. أعجبني منه أنه يغار عليّ، فهذا يعني أنه لديه مفهوم شرقي عن الشرف، فطردت من ذهني مخاوفي السابقة، لأنني كنت أرى أن الأتراك متحررين وما إلى ذلك فاطمأننت من غيرته عليّ أنه مستحيل أن يؤذيني. وبدأ يهملني، كان يغادر لمدة أسبوع أو ثلاثة أسابيع، وأنا عروس جديدة، لم يمض على زواجنا أكثر من اثني عشر يوماً. يتركني مع أهلي في عينتاب، في ذلك البيت الصغير، غرفة وصالون، وهو أصغر حتى من بيت أخي، وكان في البناء نفسه. وكان يصحبني إلى ديار بكر ليقضي حاجته، لليلة أو ليلتين، ثم يعيدني إلى عينتاب. بدأت أشك في أمره، فقلت له أريد أن أستقر. كنا قد تزوجنا في شهر أيلول، وحين أصبحنا في شهر كانون الأول بدأ الجو يبرد، وهو لا يستطيع أن ينام عندي، ويقول لي إنه لا يريد أن يتركني وحدي، ليبرر إبقاءه لي عند أهلي في عينتاب. وكل ذلك بالإشارات، فلا لغة مشتركة بيننا. وفي إحدى المرات اصطحبت أختي إلى البيت في ديار بكر، وبقيت معي اثني عشر يوماً، وزوجي يأتي فقط في وقت متأخر من الليل، يحضر معه الطعام وينصرف. لم أعد أطيق هذا الوضع، فطلبت من أختي أن تسافر إلى عينتاب، لنرى هل سيتحمل مسؤوليتي. وسافرت أختي، فبقيت وحيدة في بيت كبير من خمس غرف، في مدينة لا أعرفها ولا أعرف لغة أهلها، ولا أعرف فيها أحداً.

قال لي إنه لن يأتي ليقيم معي، وإنني سأبقى وحدي، فقلت له سأبقى وحدي. بقيت على هذه الحال ستة أشهر، وبعدها بدأت أحواله المادية تتردى، فأخذ مني الذهب، ربع كيلوغرام من الذهب كان قد أعطانيه حين تزوجنا. وأحضر لي بدلاً منه أربع أساور من الذهب. وبعد ذلك أخذ مني حتى هذه الأساور.

لكن أوراقه راحت تنكشف، فقد عاد وأخذ الأساور الأربعة أيضاً، وقال إنه سيعيدهم لي بعد أربعة أيام. وأعطيته الأساور بكل سذاجة، فنحن زوجان، ولا فرق بيننا. هكذا فكرت. وبعد أربعة أيام، بدلاً من إعادة الأساور إليّ، أعادني إلى بيت أهلي مرة أخرى، وغاب. بدأت أتصل به، فلا يرد على اتصالاتي، مضى أسبوع وأنا لا أعرف شيئاً عنه. وفي غضون ذلك اكتشفت أنني حامل. بعد انقضاء الأسبوع اتصل بي، وقال إنه في إسطنبول، فسألته عن سبب عدم رده على اتصالاتي، فقال إنه تعرض لظروف صعبة. وطبعاً المكالمة كلها تجري بصعوبة بسبب حاجز اللغة، والجارة جالسة بجانبي تساعد في نقل الكلام فيما بيننا. وحين أخبرته أنني حامل، كانت ردة فعله فظيعة، لأنه راح يسألني كيف حامل وأنا عند أهلي؟! والمشكلة أنني لا أملك اللغة لأشرح له وأدافع عن نفسي. فبدأت الجارة التركية تشرح له: ألا تعرف أن الحمل لا يتضح فوراً؟ بعد الكثير من الجدل سألته عما إذا كان يريد إنجاب الطفل أم لا؟.

تدخل أخي الكبير وقال لي: "يحسن بك أن تجهضي حملك". فرفضت كلامه. فأنا أعتبر الإجهاض جريمة قتل. والطفل لي، بصرف النظر عن رأيه.

أمضيت فترة الحمل تسعة أشهر وهو غائب، لم يأتِ إلى بيت أهلي حيث أقيم. جاء في الشهر الثامن. لم تكن معه سيارة ولا نقود، حتى أنه لم يرسل لي أي مصروف. قال لي إنه تعرض للسرقة والنصب وخسر كل ما يملك. وطلب مني أن أتحمله حتى يقف على قدميه من جديد. وقال إنه سيستأجر لي بيتاً في عينتاب، "فلم يعد لك شيء في ديار بكر". قال إن زوجته عرفت البيت، وأن ابنته دخلت إليه وأحرقت ملابسي وأخذوا كل أثاث البيت.

كنت قد تركت كل شيء في البيت وجئت إلى عينتاب في البيجاما، كانت نيتي أن أعود بعد يومين، لكنني لم أرجع. كان أهلي قد أحضروا لي معهم "الجهاز" من سوريا، كل ملابسي التي كانت قد بقيت في سوريا. لم أعد أريد شيئاً منه غير تسجيل ابنته على اسمه كي لا تبقى بلا أب معترف به رسمياً. الخيط الوحيد الذي يصلني بهذا الشخص هو الهاتف، وحين يقوم بإغلاقه أو لا يرد عليّ، أكون ضائعة تماماً، فأنا لا أعرف أي معلومات عنه باستثناء اسمه. حين جاء في شهري الثامن تمكنت من الحصول على صورة لبطاقته الشخصية. قضى معي نحو أسبوعين أو ثلاثة في بيت أهلي متذرعاً بأنه ليس لديه بيت، ولا يملك نقوداً ليستأجر. وتحمل أهلي وجوده في ذلك البيت الصغير فقط ليكون موجوداً عند الولادة ويسجل الطفل باسمه. ولكن فجأةً اتصلت زوجته في إحدى الليالي، مع أنه زعم أنه قطع علاقته بها وكان مشرداً في إسطنبول، طلبت منه أن يسافر إليها، فعاد إليها في الوقت الذي اقتربت فيه ولادتي. قال لي: حين تظهر أعراض الطلق اتصلي بي فآتي فوراً. كانت الطبيبة المشرفة على حملي قد نصحتني بالمشي. وفي أحد الأيام خرجت برفقة أمي لنمشي قليلاً، وإذ بسيارة تصطدم بي. اتصلت به أخبره بالحادث، وبدلاً من أن يتعاطف معي راح يوبّخني لأنني خرجت من البيت. كان يعاملني وكأنني سجينة، فكان يطلب مني عدم الخروج حين كنت في بيت أهلي. بعد الحادث دخلت مشفى التوليد بشكل اضطراري مع أنه لم تظهر أعراض ولادة بعد. بقيت أسبوعاً في المشفى تحت المراقبة الطبية، لأن المشيمة انثقبت. أتصل به ليأتي ولكن لا حياة لمن تنادي. في اليوم الثامن ولدت طفلة تخطف العقل، حلوة جداً. لكني شعرت أنها بلا أب. الفتاة تنتظر هذه اللحظة، كان عمري ثلاث وثلاثون عاماً، طوال عمري وأنا أنتظر لحظة أصير أماً وأنجب كثيراً من الأولاد، أما في الواقع فقد كانت ولادتي عسيرة كلفتني سنتين من العلاج من آثارها. أخبرته أختي أنني ولدت، فقال لها إنه سيأتي. لكنه لم يأت إلا بعد مرور أربعة عشر يوماً، كانت ولادتي في الشتاء وهطول الثلج، وأخوتي في المعمل لا يستطيعون أن يتركوا عملهم ويأتوا ليقفوا بجانبي. كما أن طفلتي أصيبت بأبو صفار وتعرضت للخطر، فأدخلناها المشفى في الرابعة صباحاً.

الجارة التركية بدأ ضميرها يؤنبها، فصارت ترافقني إلى المشفى ومنه، وتقف بجانبي، وتؤمن حفاضات لطفلتي وملابس، أما زوجي فهو لا يعرف أي شيء عنها. جاء إذن بعد أربعة عشر يوماً على ولادة ابنته، فطلبت من أهلي أن لا يوبخوه، فقد أراد أخوتي أن يطردوه. كان كل همي هو أن يسجل الطفلة باسمه. جاء خالي الوفاض، وقال لي: عليك أن تصبري عليّ ستة أشهر. طفلتي من عمر الشهرين والنصف تنمو في بيت لا تدخله الشمس ولا الهواء، وأصيبت بذات الرئة فأدخلناها في مشفى الأطفال. دخلتها على اسمي طبعاً لأنها لا تملك هوية، حيث قضيت معها أسبوعاً. وأصدروا كملك للطفلة. ظل الوضع على انتظار وتسويف منه طوال ثلاث سنوات ونصف. أصبحت الطفلة بهذا العمر وهي لا تعرف شكل أبيها إلا من خلال الصور، بالكاد جاء والتقى بها مرة أو مرتين.

قلت له طلقني، فرفض قائلاً إنه يحبني ويريدني. "إذن افتح لي بيتاً، حتى ولو بغرفة واحدة أسكنها مع ابنتي". فأطلق وعوداً جديدة كعادته. كنت عاجزة عن تقديم أي شيء لطفلتي، وهي تكبر ولها متطلبات. كنتُ خائفة أن يأخذها مني. وأهلي يحثونني على الانفصال عنه. بلغ بي اليأس أنني فكرت بأخذ ابنتي والسفر إلى سوريا. فعلى أي حال البنت ليس لها قيد عائلي في تركيا. لكني في نفس الوقت كنت خائفة من أخذها إلى بلد ما زالت الحرب مشتعلة فيها. فقررت البقاء على أمل أن يأتي الفرج من الله، وزوجي يحبني فلا بد أن يتغير سلوكه معي.

قاطعته فترة ثمانية أشهر، وفي غضون ذلك رفعت عليه دعوى تثبيت نسب للطفلة، بعدما استشرتُ محامياً سورياً. ثم أتعبتني دوامة المحاكم، وتمكنت من إقناع زوجي بتثبيت نسب البنت. وضعفت أمام إلحاحه فعدت إليه مرة أخرى. لكني فوجئت بأنه لم يتغير أبداً على رغم وعوده الكثيرة. الخلاصة أنني بقيت سنة كاملة على هذه الحال وأنا أمنحه الفرص لعل وعسى. لكنه لم يتغير بمقدار ذرة. فقررت إنهاء هذا الوضع، قلت له إنني سأعود إلى عينتاب. وبالفعل عدت إلى بيت أهلي وقد قررت الطلاق منه بصورة نهائية.

بعد ذلك بسنة استصدر أمراً تنفيذياً بأخذ ابنتي مني، قرعوا الباب وأنا نائمة، وطفلتي في حضني. أخذوها من حضني وذهبوا وهي تبكي وتقول: "أريد ماما". وهكذا بقيت ابنتي بعيدة عني لعشرة أشهر.

وكنت في غضون ذلك أشارك في بعض الدورات التدريبية المأجورة، من غير أن أخبره. شاركت في مشروع زراعي. فقط لأؤمن مصروفي ومصروف ابنتي. فأنا لا أحب أن أكون عالة على أحد. وهو أضاع لي فرصاً كثيرة. لو أنني استفدت من الفرص الكثيرة التي وجدتها منذ مجيئي إلى تركيا، أي من عشر سنوات، لكنت في وضع مختلف الآن.

وكلت محامياً تركياً عن طريق نقابة المحامين، قال إنه سيعيد لي ابنتي خلال أربع وعشرين ساعة، لكنه غدر بي، وراح يسوّفني.

بعد عشرة أشهر أعادها بنفسه إلى بيتي. يبدو أنه خاف لأن هناك قضايا مرفوعة ضده، وبينها قضايا في محكمة الجنايات، فلم أترك نائباً عاماً إلا وقصدته، ربما بلغ عدد الدعاوى التي رفعتها ضده سبعاً. كل ذلك بفضل الله تعالى، والحمد لله. فقد بدأ يتصل بأختي ويقول لها إنه سيعيد البنت، لكنه يريدني. حتى آخر لحظة وهو يكرر أنه يريدني.

من أكثر الأشياء التي تؤلمني هو شعوري بأن زواجي قد تسبب بتدهور الوضع الصحي لأبي، فأشعر بأنني مذنبة بحقه. كان المرحوم يحبني كثيراً، لم يحببني أحد بقدر ما أحبني. فقد منحني ثقته وحريتي الكاملة في اتخاذ القرار بشأن الزواج. لأنني في نظره بنت واعية قادرة على اتخاذ القرار الذي يناسبني. لكن ما حدث أن قراري بالموافقة على الزواج من هذا الرجل كان خاطئاً، وهو ما أثر كثيراً على صحة أبي. أشعر أنني أخطأت بحقه وخنت ثقته واتخذت قراراً خاطئاً دفعت ثمنه غالياً. أشعر بتأنيب الضمير لأنني أعتبر أنني تسببت بموته.

من يعرفونني يقولون إنني قوية ولا خوف عليّ. فلم يتخيّل أحد أن أقع في هذه الورطة. أقول لنفسي إنها غلطة الشاطر كما يقال. بهذا القرار خسرتُ عشر سنوات من حياتي.

أعيش الآن مع أهلي. الحياة صعبة، والبنت تكبر، وللأسف أخذت من أبيها طبائع سيئة جداً في الفترة التي عاشتها معه. فعندي مشكلة معها. أحاول تجاوز الأمر بصورة تدريجية. هي تعيش معي منذ سنتين. صحيح أنها كانت سنة مؤلمة، لكنها أيضاً كانت بداية النجاة. أشبّه الأمر بالمخاض المؤلم، ولكن في نهايته يأتي الفرج، ولستُ نادمة والحمد لله. أقول الحمد لله أنني اجتزت هذه المرحلة. ولكن مع عودة ابنتي بدأت صحتي بالتدهور، كأن كل تلك الضغوط التي عانيت منها قد أدت إلى ذلك. كنتُ أمشي مثل اللبوة، مثل قطة أخذوا منها فراخها، فتوحشت. هذا ما أحسستُه. لم أترك باباً إلا وطرقته من أجل استعادة ابنتي. كانوا يقولون لي إنني عملت ما عليّ، والبقية على رب العالمين. لقد ازدادت صلتي بالله قوةً في هذه المرحلة، أدعو الله كلما وقفت على سجادة الصلاة أن يعيد ابنتي لي. والحمد لله ما خيبني.

أشعر أنني امرأة في مهب الريح، في كل حياتي كان التيار يهب بعكس اتجاهي، يكون عندي هدف دونه عقبات على الدوام. حين أسست حياتي في سوريا على أنني أريد أن أكون محامية قوية، وأن أعمل في دار الأيتام، لكي أحصّل حقوق الأيتام، اندلعت الحرب. جئت إلى تركيا، تحديت نفسي وقررت أن أتزوج من شخص لا أعرف شيئاً عنه. حاولت معه لسبع سنوات ونصف، وأنا مستمرة كأم، أريد أن أدافع عن ابنتي، وأن أكون أماً، حتى لا يأتي يوم تقول لي فيه إنني تخليت عنها، أو تقول لماذا حرمتني من أبي، ومن الصعوبات التي واجهتها معها أنها حين عادت كانت لا تتكلم إلا اللغة التركية، وقد نسيت العربية تماماً.

الحمد لله تجاوزنا هذه المرحلة، لكنها كلما كبرت كبرت معها مشكلاتها أيضاً وطلباتها تكثر، وأنا في مرحلة البحث عن عمل. صحيح أنني قررت أن أعود إلى سوريا، لكني ما زلت على أمل الحصول على فرصة عمل هنا، فهذا يبقى أفضل من العودة وتعريض ابنتي للخطر.

أشعر أن نقطة ضعفي الوحيدة الآن هي وضعي المادي. بمجرد ما يصبح عندي عمل ودخل مادي منتظم، سأعود ر القديمة القوية.

رابطة معتقلي و مفقودي سجن صيدنايا
Association of Detainees & Missing in Sednaya Prison